نظرة في قضية المؤثرات الأجنبية في النقد العربي الحديث

د. عبد النبي اصطيف

يشير الدكتور محمد عبد الحي في دراسته الممتازة: التراث والتأثير الإنكليزي والأمريكي في الشعر العربي الرومنتي Tradition English and American Influence in Arabic Romantic Poetry (لندن، 1982) إلى أن الإحياء الكلاسي الجديد للشعر العربي الحديث في النصف الثاني من القرن التاسع عشر قد مرّ بمرحلتين متميزتين؛ "أولاهما: إعادة اكتشاف للشعر العربي الكلاسي والنظريات الشعرية الكلاسية، وثانيتهما: انتشار تدريجي للتأثيرات الأدبية الإنكليزية و(في تلك المرحلة) الفرنسية بشكل رئيسي"(1)، ومعنى ذلك أن هذا الشعر قد خضع لعاملين رئيسيين مارسا تأثيراً كبيراً في جملة التطورات التي مرّ بها خلال السنين المئة والخمسين الماضية. وأول هذين العاملين هو التراث الشعري العربي الممتد أكثر من خمسة عشر قرناً؛ وثانيهما هو التراث الثقافي الأوربي الحديث الذي بدأ في التغلغل إلى المشهد الثقافي العربي منذ القرن الثامن عشر. والحقيقة أن دور هذا العامل قد بدأ يتعاظم بالتدريج ويطبع النتاج الشعري بطابع يميزه عن النتاج المتأثر بالنظريات التراثية في الأدب والنقد.

وإذا كان للتأثيرات الأدبية الأجنبية هذا الدور البارز في عملية إحياء جنس أدبي عريق كالشعر العربي، فإن دورها كان، ولا شك، أكبر في ولادة أجناس حديثة العهد كالمسرحية والرواية والقصة القصيرة وفي ترسيخها وتطويرها والوصول بها إلى ما بلغته اليوم من تقدم.

ولما كان النقد الأدبي إنشاء عن إنشاء آخر (هو الأدب) يستخدم الأداة نفسها التي يستخدمها موضوعه، والتي هي اللغة الطبيعية، فإنه محكوم بموضوعه أي بالأدب نفسه، وبالتالي بجملة المؤثرات التي تشكّله. وهكذا فإن للمؤثرات الأجنبية، سواء أكانت إنكليزية أم فرنسية أم

سوفياتية أم أمريكية، دوراً في تشكيل الأفكار النقدية التي واكبت حركة الإحياء الأدبي أو ما يسمى بالنهضة في القرنين الأخيرين، على الدرجة نفسها من الأهمية التي كانت لها في تشكيل النصوص الأدبية موضع دراسة النقد العربي الحديث. وبالتالي فإن أية دراسة للنقد العربي الحديث لن تكتمل دون إشارة مفصلة لهذا الدور الذي مارسته في تطوير الفكر العربي الحديث وتوجيهه الوجهة التي سلكها.

والحقيقة أن دارس هذه المؤثرات يواجه جملة كبيرة من الصعوبات في تتبعها، إضافة إلى إشكالات عديدة تتصل بتقويم دورها، وتحديد أشكالها، ومن ثم سبر درجة تمثلها، وفاعلية توظيفها في الممارسة النقدية العربية، ومن هنا فإن الحديث عن هذه المؤثرات يجب أن يتطرق إلى عدة أمور منها:

- صعوبات دراسة المؤثرات الأجنبية في النقد العربي الحديث.
- تقويم دور هذه المؤثرات في توجيه النقد العربي الحديث.
- أشكال المؤثرات الأجنبية، ودرجات تمثلها، وفاعلية توظيفها في الممارسة النقدية العربية نظرياً وتطبيقاً.

صعوبات تلمس المؤثرات الأجنبية:

ولنبدأ بالصعوبات التي تواجه دارس النقد العربي للمؤثرات الأجنبية، عندما يحاول تتبعها وتحديد سبلها، وأشكالها، ودرجات تمثلها، ثم تقويم دورها.

1- أول ما يتبادر إلى ذهن المرء في هذا السياق هو الصعوبة التي تقترن بالعثور على الدليل الخارجي External evidence على وجود مؤثر أجنبي، وأعني بهذا المعلومات المتعلقة بالتكوين الثقافي لمنتج النص النقدي. ومن المعروف أن مصدر هذه المعلومات الأساسي، إضافة إلى المقابلات والتصريحات الشخصية للنقاد، هو سيرهم الشخصية. ولا أظن أن ثمة من ينازع في أن الاهتمام بفن السيرة في الأدب العربي الحديث وخاصة فيما يتعلق بأعلام الأدب والنقد المحدثين محدود جداً على الرغم من وجود بوادر تقليد ثقافي متصل بالسيرة في الثقافة العربية الكلاسية.

والواقع أن هذه السير تشكل عوناً كبيراً للدارس على تعميق فهمه للنصوص الأدبية بشكل عام،

والنصوص النقدية بشكل خاص، وتزوّده بدلائل إضافية ترجّح الأخذ بهذا التفسير أو ذاك، صحيح أنها دلائل مساعدة، ولكنها قد تكون ذات تأثير حاسم في ترجيح رأي على رأي عندما يتعلق الأمر بإصدار حكم دقيق في أمر ما أو قضية ما تتصل بناقد أدبي أو بنص من نصوصه. إن السير الشخصية تساعد على مزيد من الفهم والمتعة في قراءة النصوص. تقول البروفيسورة هيلين غاردنر Helen Gardner أستاذة الأدب الإنكليزي في جامعة أكسفورد في خطاب الرئاسة الذي ألقته في "رابطة البحث في العلوم الإنسانية " في كانون الثاني من عام 1980، عن أهمية " السيرة الأدبية".

"يجب بالتأكيد أن يكون ثمة تقسيم ما للعمل هنا بين كاتب السيرة وناقد الأدب، وينبغي أن يعترف كلاهما أن أحداً منهما لن يبلغ أكثر من حقيقة جزئية عن الرجل أو عن آثاره أو عن الصلة بينهما.

لقد أقررت-كناقدة- دائماً بأهمية المعلومات السيرية، لأنني أعتقد أن القصيدة أو الرواية هي شيء تاريخي، أنتجه من قبل كائن بشري في زمن معين وفي ظروف معينة، وعلى الرغم من كونه مستقلاً بالمعنى المهم في أنه ذو وجود مستقل عن الخبرات والعواطف التي يصدر عنها الكاتب في صنعه له، فإن الخبرات والعواطف تكون ضمن الأسباب الداخلة في صنعه مثلها مثل الملاحظات المتصلة بعالم الطبيعة، وعالم الأفعال الإنسانية، والتقاليد الأدبية التي يمكن أن يصدر عنها المؤلف. إن هذا الشيء التاريخي يمكن أن يفهم إلى حد ما ويستمتع به دون هذه المعرفة، ولكن المعرفة بكل أنواعها تستطيع أن تساعد الفهم والمتعة كليهما"(2)

ولكن يبدو أن دارس الأدب العربي الحديث عامة، والنقد الأدبي خاصة، مجبر على أن يؤدي مهمته دون الاستعانة بهذا المصدر المهم المتصل بأصول النصوص التي يفككها من أجل العثور على الافتراضات الضمنية التي تحكم إنتاجها، على الصورة التي هي عليها.

وثاني هذه الصعوبات هو عدم وجود ثبت شامل ومستقص للترجمات العربية للآداب الأجنبية. فباستثناء الثبت الذي أشرف عليه بدر الديب وأعدته لجنة من حسين بدران وسليمان جرجس وفاطمة إبراهيم

والـذي تضـمن بيبلوغرافيـا للأعمـال المترجمة إلى العربية بين عامي 1956-1967 في القطـر العربـي المصـري، والبيبلوغرافيـا الممتـازة للترجمـات العربيـة للشـعرين الإنكليـزي والأمريكـي بـين عـامي (1830-1970) والـتي أعـدها الـدكتور محمـد عبـد الحي ونشـرتها لـه مجلة الأدب العربي Journal of Arabic Literature في عـددها السـابع الصـادر عـام 1976، والبيبلوغرافية الجزئية المتصلة بالأدب الألماني والعربي الـتي وضـعها ولفغـانغ أولـه، وبعـض أعمـال يوسـف أسـعد داغر، لا يجد المرء أي عون في دراسة الدور الذي أدته هذه الترجمات، أو في توثيـق المصـادر الأجنبيـة للأفكـار الأدبية العربية الحديثة أو التأريخ لها.

لقد كـان للترجمة أهمية كبيرة في حياتنا الفكرية منذ بداياتها الأولى في القـرن التاسـع عشـر، لأنهـا " لم تكن تنقل معلومات وتجارب فحسب ولكنها كانت تخدم تيارات فكرية واجتماعيـة بـل وتسـاعد علـى نشـأتها وبلورتهـا. وهـذا في حـد ذاتـه، أي دور الترجمـة وأثرهـا في التطـور الفكـري والاجتمـاعي، لا يـزال في حاجـة إلى الكـثير مـن البحـث والتحليـل العلمـي الذي يتجاوز ما قدمه بحاث مثل جاك تاجر، أو جمال الدين الشيال. فما زلنا مبدئياً في حاجة إلى حصر بيبلوغرافي لحركة الترجمة منذ بدايتها في القرن الماضـي حتـى يمكـن الشـروع علـى أساس علمي في دراستها وتحليلها "(3).

لقـد كتـب هـذا الكـلام عـام 1972، ولكننـا بعـد أكثـر مـن ثلاثـة عقـود مـن السـنين مازلنـا حيـث نحـن، نعتمـد في أحكامنـا المتصلة بـالقرائن الخارجية في دراسة المؤثرات الأجنبية إما على دلائل جزئية غير وافية، وإما على تخمينات غير موثقة.

وإذا ما شـاء المرء أن يـذكر مثالاً واحـداً علـى أهميـة وجـود هـذا الثبـت فإنه يمكن أن يشير على سبيل المثال إلى مفهـوم الالتـزام في الأدب العربـي الحـديث. إن السـؤال الـذي يواجـه أي دارس لهـذا المفهـوم هـو هـل يمكـن دراسـة انبثـاق هـذا المفهـوم في الفكـر الأدبـي العربـي دون إشـارة وافيـة إلى الفيلسوف والكاتب والناقد الفرنسـي الوجـودي جـان بـول سـارتر، وهـل بالإمكان دراسة تأثير سارتر في الأدب العربي الحديث دون التتبع المستقصي للإشارات المتصلة به، وللترجمات التي تمـت لأعمالـه. لقـد أشـار أكثـر مـن دارس إلى أن نقـاد الأدب القـوميين في

نهاية الأربعينات وبداية الخمسينات عمدوا إلى الإفادة من فكر سارتر في بلورة وجهة نظر عربية قومية تتصل بدور الكاتب في المجتمع، ووظيفة الأدب بشكل عام، وأنهم لجؤوا إلى المتح من هذا المصدر الإيديولوجي لمواجهة النقاد الماركسيين الذين كانوا يصدرون في تصورهم لها عن أرضية نظرية راسخة من جهة؛ وللحفاظ على ولائهم القومي من جهة أخرى، ولكن حكماً كهذا، وعلى الرغم من أنه في مجمله غير بعيد عن الصحة، لا يمكن أن يُطمأن إليه دون أن يكون قائماً على دراسة موثقة للإشارات المتصلة بسارتر والفكر الوجودي، وبخاصة الترجمات التي ظهرت بالعربية للآثار المعنية. ومن الطبيعي أن تكون الخطوة الأولى في دراسة هذه الإشارات، هي إعداد ثبت بيبلوغرافي بترجمات أعماله.

أما الصعوبة الثالثة وهي تتصل أيضاً بالدليل الخارجي فهي عدم وجود فهارس وافية للدوريات العربية تسهل حصر الإشارات المختلفة إلى الآداب الأخرى، هذه الإشارات التي ربما تفوق في أهميتها الترجمات نفسها، نظراً لأنها تصل إلى جمهور أوسع من ناحية، ولأنها تأتي استجابة لتطورات ثقافية داخلية معينة من ناحية أخرى، وبالتالي فإن إمكانية استيعابها والتأثر بها تكون أكبر، لكونها تلبي حاجة ملحة في الأوساط الثقافية. ومن الجدير بالذكر أن هذه الإشارات يمكن أن تتخذ عدداً من الأشكال التي ربما كان من أبرزها:

الترجمة بمختلف أشكالها (الموثقة وغير الموثقة، والمتصرف بها أو الدقيقة، والجزئية أو الكلية).

الدراسات المتعلقة بالآداب الأجنبية سواء منها القائم على أعمال مترجمة لتوها إلى العربية، أم القائم منها على أعمال في لغاتها الأم.

المناقشات المتصلة بشؤون هذه الآداب، كالمناقشة التي تمت على صفحات الآداب في النصف الثاني من الخمسينات لرواية بوريس باسترناك " الدكتور جيفاكو ".

مراجعات الكتب الأجنبية القصيرة والطويلة، سواء أكانت هذه الكتب مترجمة إلى العربية، أم بلغاتها الأم، وسواء أكانت المراجعات نتاجاً عربياً، أم مترجماً عن المجلات الأجنبية.

الأخبار المتصلة بهذه الآداب والتي تم تغطيتها من خلال الزوايا الثابتة في المجلات الأدبية، كالرسائل الثقافية وسواها.

إن سد هذه الثغرة أمر حيوي وهام في تطوير الدراسات العربية جملة، وفي تسهيل مهمة دارس المؤثرات الأجنبية لأن تتبعها يقتضي وقتاً وجهداً كبيراً، هذا إن توفرت مجموعات كاملة من هذه الدوريات في مكان واحد. وقد يستغرب القارئ إلحاح صاحب السطور على أمر كهذا، ولكن الوقت والجهد الذي يوفره فهرس للدوريات العربية لا يمكن تقديرهما. وحسب المرء أن يشير هنا إلى مشروع ج،د. بيرسن العظيم(4) J. D. Pearosn الفهرس الإسلامي Index Islamicus، والذي يضم فهرسة ممتازة لمقالات ما يقرب من خمسمئة وعشر دوريات تصدر باللغات الأوربية وتعنى بالدراسات العربية والإسلامية، إضافة إلى جملة كبيرة من المنشورات الجماعية، هذا العمل الذي صدر في مجلد ضخم وأربعة ملاحق ضخمة ومجلة فصلية عمرها أكثر من أربع عشرة سنة، أقول حسب المرء أن يشير إليه حتى يرى حجم المشقة التي يمكن أن يتكبدها مراجع الدوريات العربية دون فهرس مماثل.

ومن الغريب أيضاً حقاً أن نجد المستشرقين أكثر حرصاً منا على توفير هذه التسهيلات، فقد علمت من البروفيسور بيرسن والدكتور دريك هبوود أن " مجلس مكتبة الشرق الأوسط " قد أعد فهرساً مماثلاً لخمسين دورية عربية، وأنه قد انتهى منذ عدة سنوات، وقد اتفق مع هيئة جامعية في بيروت على طبعة من إخراجه في ثلاثة مجلدات ضخمة. ولكن يبدو أن الفاجعة التي حلت بالعرب في هذا القطر قد حالت دون صدوره، ولا يدري المرء ماذا يمكن أن يكون قد حلّ به بعد الدمار الذي لحق بيروت على يد حامل جائزة نوبل للسلام.

ورابع هذه الصعوبات هو عدم توثيق فعاليات المراكز الثقافية الأجنبية في الأقطار العربية، لاعتبارات فوق أدبية، إضافة إلى عدم محاولة سبر هذه الفعاليات للاعتبارات نفسها. فمن المعروف أن معظم العواصم العربية، أو أبرز هذه العواصم، التي تمثل مراكز الثقل في النشاط الثقافي العربي، تضم مراكز ثقافية مختلفة، كالمراكز الثقافية

السوفياتية، والألمانية الديمقراطية، وفروع معهد غوته، وفروع المجلس البريطاني، والمراكز الثقافية الأمريكية، والفرنسية، والإسبانية، والإيطالية أحياناً. ولما كان الهدف الرئيسي المعلن من هذه المراكز هو المساعدة على نشر ثقافة دولة المركز في الدولة المضيفة، إضافة إلى تعزيز صلات التعاون الثقافي بين القطر العربي المضيف وبين قطر المركز الضيف، فإن من الأهمية في دراسة المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي والنقد على نحو خاص تتبع نشاط هذه المراكز ودراسة مختلف فعالياتها وتقويم دورها في أفكار أدبية معينة، أو الترويج لأعمال أدبية معينة، أو توفير تسهيلات تتعلق بتعليم اللغات الأجنبية، أو المكتبات أو غير ذلك. ولا ينسى المرء بالطبع ما يمكن أن يحمله الاهتمام بهذه النشاطات من خطر الوقوع في شبهات تتجاوز مقاصد البحث والدراسة، الأمر الذي يؤدي إلى إهمال هذا السبيل من سبل تسرب المؤثرات الأجنبية، سبيل هو على غاية الأهمية لأنه سبيل مخطط وهادف ومباشر.

وأما الصعوبة الخامسة، فإنها تتعلق بعدم وجود دراسات متخصصة للعلاقات الثقافية الخارجية للوطن العربي وصلاته بالثقافات الأخرى. والحقيقة أن هذه الدراسات على درجة كبيرة من الأهمية لأنها تمثل الخلفية التي تتحرك أمامها مجمل الأفكار الأدبية المتصلة بهذه الثقافات، وهي تساعد دون شك على تفهم المناخات الثقافية التي انتشرت خلالها أفكار معينة.

وأما الصعوبة السادسة فهي عدم وجود سجل منفرد سهل المراجعة للنشاطات الثقافية المتصلة بالآداب الأجنبية والتي تتم في أي قطر عربي من قبل المؤسسات الثقافية الحكومية، أو اتحادات الكتاب، أو جمعيات الصداقة العربية-الأجنبية، أو المؤسسات الثقافية الدولية، والتي تقام في مناسبات معينة تمليها في كثير من الأحيان ظروف فوق-أدبية. إن وجود سجل ثقافي موثق ومفصل ودقيق لعلاقات الوطن العربي بـ " الآخر " أمر حيوي في دراسة الفكر الأدبي العربي الحديث وفهم ما خضع له من تطورات وتحوّلات.

وأما الصعوبة السابعة فهي تتصل بما يمكن المرء أن يدعوه بحساسية الإشارة إلى أية مؤثرات أجنبية سواء

أكان ذلك على الصعيد الشخصي (بين الناقد، ودارس الناقد) أم على الأصعدة الأخرى. كمكانة الثقافة القومية، أو مكانة أديب الأمة، وما إلى ذلك من تضمنات غالباً ما تشكل عوائق في طريق البحث، إذ أنها تعيق خلق مناخ صحي يستطيع أن يؤدي النقاد ودارسو النقد فيه دورهم بفعالية وإيجابية.

وأما الصعوبة الثامنة فهي الحالة المزرية للتسهيلات المتاحة للباحث العربي والتي ربما كانت السبب الأساسي وراء عدم تقدم الدراسات العربية وبلوغها المستوى المطلوب. ويكفي أن يقارن المرء بينها وبين ما هو متاح للباحث الأجنبي الدارس لثقافتنا على سبيل المثال من تسهيلات تتراوح بين المكتبة الممتازة والمستوعبة للكتب والدوريات والنشرات والوثائق والأوراق الخاصة والمخطوطات والحاسب الآلي مروراً بخدمات الأجهزة الرسمية، إضافة إلى ما ترصده المؤسسات الثقافية ومعاهد البحث والدراسة والخدمات من أموال طائلة، وما توقفه المؤسسات الاقتصادية والتجارية المهتمة بمنطقتنا من ريوع على البحث والدراسة، ودع عنك بعد ذلك الظروف المعيشية للباحثين أنفسهم والتي لا تكاد تفكر فيها المؤسسات الثقافية أو التعليمية أو التربوية العربية(5).

إن الثقافة إنتاج في مجملها، وليست إبداعاً مطلقاً، وما لم يتم توفير وسائل هذا الإنتاج وتنظيم علاقاته، وتعبئة موارده من أجل دفع الحصيلة النهائية كماً وكيفاً، فإنه لا سبيل إلى تعليق آمال كبيرة على مستقبلها. ولذلك فإن القائمين على أسباب إنتاج الثقافة العربية ينبغي أن ينتبهوا إلى ضرورة القيام بشيء ما، من أجل تغيير ظروف هذا الإنتاج، حتى يكفلوا إنتاجاً ثقافياً يمكن أن يعتبر إسهاماً عربياً من ناحية، وأن ينتمي إلى العصر الذي نعيش فيه من ناحية أخرى.

وتاسع هذه الصعوبات هو أن الدراسات التي تناولت المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث سواءً في ميدان الشعر أم المسرحية(6) نزرة من جانب، ومتفاوتة في منهجيتها وفائدتها من جانب آخر. وربما كان من المؤسف أن يشير المرء هنا إلى أن الجاد من هذه الدراسات مازال يقبع في المكتبات الجامعية على شكل رسائل باللغات الأجنبية ننتظر وصولها إلى أيدي القراء من خلال نشرها في

كتب بالعربية أو باللغات التي دونت بها(7).

وبالطبع فإن المعلومات المتعلقة بهذه الرسائل محدودة في المكتبة العربية. فليس هناك من ثبت بها، أو بأماكن وجودها، وليس ثمة نظام مكتبي لتبادل الكتب والرسائل مع المكتبات الجامعية الخارجية يتيح للدارس العربي الاطلاع عليها ما لم يكن يتابع بحوثه في جامعة غير عربية.

وعاشر هذه الصعوبات هو أن تتبع هذه المؤثرات يقتضي معرفة لغات عديدة كالفرنسية والإنكليزية والروسية والألمانية، إضافة إلى معرفة متعمقة في آداب هذه اللغات وثقافاتها وهو أمر يقتضي إعداداً مدروساً وتأهيلاً مناسباً من ناحية، ووقتاً طويلاً وجهداً يتجاوز الجهود الفردية من جهة أخرى.

وآخر الصعوبات التي يمكن أن يذكرها المرء في هذا السياق، هو ضعف التقليد الثقافي المتعلق بالدراسات المقارنة وخاصة في الأدب والنقد، الأمر الذي ينعكس على التشجيع الذي يلقاه دارس هذه المؤثرات والمناخ الذي يمكن أن يمارس فيه الدارس المقارن عمله وبحوثه.

* * *

ولاشك أن هذه الصعوبات لا يمكن تجاوزها دون تعاون مجموعة الأجهزة المنوطة بالإنتاج الثقافي في الوطن العربي والتنسيق فيما بينها. ولكن من الأهمية بمكان ألا يشكل الحديث عنها بشيء من التفصيل رادعاً للبحث عن القيام بما يبدو لي أمراً حيوياً مهماً لا يمكن الاستغناء عنه في شرح التطورات الأدبية والنقدية التي شهدها الوطن العربي الحديث.

لقد استخدم تعبير "الصعوبات" في هذا السياق، لأن المرء يرى فيها على أي حال تحديات تعوق عمل الباحث أكثر منها عقبات لا سبيل إلى تخطيها. ومهما كان الأمر فإن المرء يأمل أن لا يساء استخدام هذه الإشارة إلى الصعوبات فتغدو على يد البعض أعذاراً، أو في هذه الحالة أسباباً واهية لإهمال تتبع المؤثرات الأجنبية، وتلمس أشكالها، ومساربها إلى الأدب العربي، ومن ثم تقويم دورها الذي أدته في الحفز على جملة التطورات التي تمر بها الثقافة العربية المعاصرة، وعلى نحو موضوعي.

أهميــة دور المــؤثرات الأجنبيــة في تطــور النقد العربي الحديث

ولكـن مـاذا عـن هـذا الـدور؟ ومـا هـي درجـة الأهميـة الـتي يمكـن أن يعزوها المرء لهذه المؤثرات الأجنبية في جملة النشاطات المتصلة بالنقد العربي الحديث؟

يمكـن الباحـث، إذا مـا رغـب في تبسـيط الخيـارات المتاحـة افتراضـاً أن يتحدث عن درجات ثلاث للأهمية التي يمكن أن تعزى للمؤثرات الأجنبية في تطور الفكر النقدي العربي الحديث؛ درجات تتمحور حولها أغلب أحكام مؤرخي النقد الأدبي العربي الحديث ودارسيه من العرب أو المستعربين.

أما الدرجة الأولى فهي ما يمكـن دعوته بالأهمية المعدومة والتي يمكـن صياغتها على الوجه التالي:

"لا تؤدي المؤثرات الأجنبية أي دور في التطـورات الـتي يشـهدها النقـد العربي الحديث"

وأمـا الدرجـة الثانيـة فهـي الأهميـة المطلقـة لهـذه المـؤثرات، ويمكـن صياغتها على النحو التالي:

"كـلّ مـا جـدَّ علـى النقـد العربـي الحـديث مـن تطـورات كـان نتيجـة مباشرة للمؤثرات الأجنبية فيه"

وأمـا الدرجـة الثالثـة فهـي الأهميـة النسـبية المشـروطة بجملـة مـن العوامـل المتصـلة بالعمليـة النقديـة، ويمكـن صياغتها على النحو التالي:

"تـؤدي المـؤثرات الأجنبيـة دوراً تتحـدد أهميتـه بشـروط عمليـة إنتـاج النص النقدي وظروفها في المجتمعات العربية الحديثة".

* * *

الأهمية المعدومة:

وهـي الـتي يـدافع عنهـا مناهضـو الانفتـاح علـى ثقافـات " الآخـر "، ولاسـيما الثقافـات الغربيـة. وكمـا يمكـن أن يلاحـظ المـرء فـإن موقـف هـؤلاء جـدّ ضـعيف بسـبب وجـود عـدد مـن الـدلائل الكافيـة علـى وجـود هـذه المؤثرات ومنها:

الـدليل العقلـي: فمـادام النقـد الأدبـي إنشـاء عـن الأدب، محكـوم بالشـروط نفسـها الـتي تحكـم موضوعه، ومادامت المؤثرات الأجنبية تؤدي دوراً مهماً في الحفز على تطوير هـذا الأدب وتشـكيله، فإنهـا ولا شـك تمـارس تـأثيراً ممـاثلاً عنـدما يتعلـق الأمـر بالنقـد الأدبـي الـذي يتـدبر نصـوص هـذا الأدب ولاسـيما أن مكونـات الأدب ومحدداتـه، وعوامـل

تشكيله، والمؤثرات التي تحكم وجوده هي المكونات والعوامل والمؤثرات نفسها التي تفعل فعلها في النقد الأدبي، ومنها المؤثرات الأجنبية.

الدليل الخارجي: سواء اتصل بالتكوين الثقافي للناقد العربي الحديث، أم بعملية الانفتاح الثقافي على "الآخر" الني شهدها الأدب العربي الحديث منذ نهايات القرن الثامن عشر.

وفيما يتعلق بالجانب الأول فإن من المؤكد أن نظرته للعمل الأدبي وممارسته للعملية النقدية محكومتان بتكوينه الثقافي:

بدراسته الرسمية في المدارس والجامعات والمعاهد. بقراءته المنظمة والعارضة؛ وبجملة نشاطاته الثقافية الأخرى.

ولا أظن أن ثمة من يجرؤ على الادعاء بأن تكوينه الثقافي مقتصر تماماً على التراث النقدي العربي وأن العنصر الخارجي لم يداخل هذا التكوين بشكل أو بآخر.

أما فيما يتعلق بعملية الانفتاح، فإن مما لا شك فيه أن الأدب العربي الحديث قد شهد انفتاحاً ملحوظاً على الثقافات الأجنبية، وأن هذه الثقافات الأجنبية قد مارست تأثيراً لا يمكن إنكاره في حساسية الأديب العربي النفسية والفنية، وفي أدوات تعبيره الفنية وحتى في لغته، وبالتالي فإنها قد أسهمت في تشكيل رؤيته للعالم وفي تلوين منظوره للأشياء التي من حوله(8). وأهم من ذلك كله أن هذا الانفتاح قد خلق مناخاً معيّناً لا أظن أن أحداً من الأدباء أو النقاد العرب استطاع الإفلات منه. ومن الأهمية بمكان أن يؤخذ هذا الانفتاح من ناحية، وذاك التكوين الثقافي للناقد العربي الحديث من ناحية أخرى — وكلاهما ينطوي على حضور للآخر- بالحسبان في أية دراسة للأدب العربي الحديث أو أية دراسة لنقده.

الدليل النصي:

وهو يتخذ أشكالاً متعددة:

اعتراف الناقد الصريح باستخدامه منهجاً نقدياً أو فكرة نقدية، أو نظرية نقدية مستمدة من ثقافات "الآخر"، رأى فيها عوناً له على ممارسة عمله بوصفه ناقداً يتدبّر عملاً أدبياً معيناً في ظروف ثقافية معينة.

والحقيقة أن نصوص النقد الأدبي العربي الحديث مليئة بهذه الاعترافات

التي يدلى بها لاعتبارات مختلفة (بدءاً من ضرورات البحث وأمانته إلى التباهي الثقافي وغيرهما)، وهي لهذا لا يمكن أن تُتجاهل بل ينبغي أن تؤخذ بالحسبان عند دراسة النص النقدي العربي الحديث، مع التنبه إلى أن ذلك لا يعني الاطمئنان بحال من الأحوال إلى أن هذه المؤثرات قد استُوعبَت أو تُمُثّلت، ولا يشير بالضرورة إلى أنها قد وُظّفت بفاعلية ووعي في العملية النقدية.

الإشارات الصريحة إلى أعمال نقدية أجنبية، أو إلى أفكار نقدية أجنبية ونسبتها إلى أصحابها في أثناء الدراسة النظرية أو العملية لجانب من جوانب العملية الأدبية، وغالباً ما تستخدم هذه الإشارات لدعم فكرة يدافع عنها الناقد، أو رأي يأخذ به، أو حجة يدفعها، أو أخرى يدافع عنها. وبالطبع فإننا عندما نتحدث عن هذه الإشارات في هذا الموضع، فإنما نقتصر على جانب الوصف دون التقويم الذي ينبغي أن يكون دائماً مقيداً بالحالة المدروسة.

الأصداء المختلفة التي يعثر عليها دارس النقد العربي الحديث لأعمال نقدية أجنبية، أثّرت في تكوين نظرات الناقد المدروس، وتشكيل افتراضاته الضمنية عن الأدب وطبيعته ووظيفته، ولم ينصّ عليها بشكل مقصود أو غير مقصود، لأسباب مختلفة.

مجموع هذه الأدلة تجعل المرء يتردد كثيراً في قبول الرأي القائل بأن أهمية المؤثرات الأجنبية في تطور النقد الأدبي العربي الحديث أهمية معدومة.

* * *

الأهمية المطلقة

وهي التي يأخذ بها عدد من المستشرقين وطائفة من الباحثين العرب الذين تغلب الثقافة الأجنبية على تكوينهم الثقافي، ولم يتيسر لهم حظ وافر من الاطلاع على الثقافة العربية الكلاسية أو المعاصرة، ويمكن أن نمثل على هذه الفئة بـ ف، كانترانيو:

يقول ف، كانترانيو:

"إن النهضة الحديثة-التي يمكن ملاحظتها اليوم في الثقافة العربية وبالتالي في وعيها الأدبي- هي أقل منها استمراراً لتراث عظيم، وأكثر منها نتاجاً للحضارة الغربية، مما يود الأدباء العرب أن يعترفوا به. والنظرية الأدبية العربية الحديثة أيضاً هي

تشعب (أو نتيجة) عن النظرية الأوربية أكثر منها تطويراً للنظرية التراثية العربية"(9).

ورأي كهذا الرأي المماثل في تطرفه لتطرف الرأي الأول القائل بالأهمية المعدومة يستدعي عدداً من التحفظات ربما كان من أهمها:

أنه ينبغي التفريق أثناء الحديث عن النقد العربي الحديث، بين النقد النظري الصرف وبين النقد العملي. وإذا كانت إسهامة العرب المحدثين في نظرية النقد الأدبي العالمية محدودة ومتواضعة على المستوى النظري، فإن إسهامتهم في ميدان النقد التطبيقي - وفي أحايين كثيرة- على قدر كبير من الأصالة والعمق. ولنتذكر على أي حال أن هذا النقد العملي التطبيقي هو مواجهة لعمل أدبي عربي تشكّل نتيجة عوامل أدبية وثقافية واجتماعية واقتصادية وسياسية داخلية معينة ربما تفوق أهمية تأثيرها فيه أهمية تأثير العامل الخارجي، وأن طبيعة النص النقدي محكومة بشكل أساسي بطبيعة موضوعه أي النص الأدبي نفسه.

لا يستطيع المرء أن يشرح جملة كبيرة من التطورات التي مرّ بها الفكر النقدي العربي الحديث بمجرد إشارة أحادية إلى المؤثرات الأجنبية، دون أن يأخذ بالحسبان مجمل التطورات الداخلية الأدبية والثقافية والسياسية والاقتصادية أحياناً، والتي تؤدي باستمرار دوراً مماثلاً في أهميته للدور الذي تؤديه المؤثرات الأجنبية، إن لم يكن يفوقه في كثير من الأحيان.

وفضلاً عما تقدّم فإنه يحسن بنا أن نتذكر أن العرب القدماء كعبد القاهر الجرجاني وغيره قد حققوا في ميدان نقد الشعر بالذات تقدماً هائلاً، لم نبدأ إلا مؤخراً في التنبه إلى أهميته، وإلى وثاقة تضمناته بالنقد الحديث(10). لقد توصل بعض النقاد العرب في العصر الوسيط "في تحليلهم للأسلوب ولغة الشعر- وبخاصة في الاستعارة والصورة الشعرية- إلى نتائج مدهشة في صقلها وحداثتها يبدو معها عمل نقاد كـ آي، إيه، ريتشاردز I. A. Richards مستبقاً تماماً بثمانية أو تسعة قرون خلت"(11). وأكثر من هذا فإن كثرة متزايدة من النقاد العرب المحدثين يصدرون في نقدهم ودراستهم للشعر العربي قديمه وحديثه ـ بل وللشعر الأجنبي ـ عن كثير من هذه

النظـرات، أو يزاوجـون بينهـا وبـين نظرات من النقد الأوربي الحديث(12).

ومعنـى هـذا أن المـؤثرات الأجنبيـة لا يمكـن أن تكـون لهـا هـذه الأهميـة المطلقـة في النقـد العربـي الحـديث النظري والعملي معاً، بل إن ثمة عوامل أخـرى إلى جانبهـا تسـهم في تشـكيل الـنص النقـدي العربـي الحـديث الـذي هـو الحصيلة النهائيـة للفعاليـة النقديـة أو للنشـاط النقـدي الـذي يؤديـه الناقـد العربي الحديث في المجتمعات العربية.

* * *

الأهمية النسبية:

وهـي المشروطة بعملية إنتاج الـنص النقدي وظروف هذا الإنتاج وشروطه.

والواقع أن المرء يجد نفسـه أكـثر ميلاً إلى قبول هـذا الـرأي، لأن العمليـة النقديـة فعاليـة فكريـة معقـدة غايـة التعقيد، ولا يمكـن إحالتها على سبب واحدٍ مهما كانت درجة أهميته، ومـن المسـتحيل إضـاءة جانبهـا مـن خـلال منظـور أحـادي، أو شـرحها بإشـارة منفردة إلى هذا العامل أو ذاك.

إن متفحص نصوص النقد العربـي الحـديث يسـتطيع أن يتـبين أن أهميـة هذا الـدور ترتبط بعوامل كـثيرة ربمـا كان من أبرزها ثلاثة هي:

طبيعة النص الأدبي: فمن البيّن أن نصـاً مسـرحياً يواجهـه الناقـد العربـي الحديث يقتضي منه أن يصدر في نقده لـه عـن أفكـار تتصـل بهـذا التقليـد المسرحي الوافد أساساً. ومعنى ذلك أن دور الأفكـار النقدية الوافدة سيكـون أكبر فيما لو كـان الناقد يواجـه نصـاً شعرياً يستطيع أن يلجأ في مواجهته لـه إلى الاستعانة بكـثير من الأفكـار التي طوّرهـا النقـاد العـرب الكلاسـيون وبخاصـة في ميـدان الصـورة الشـعرية والـنظم كمـا يـراه عبـد القـاهر الجرجاني.

طبيعـة التكـوين الثقـافي للناقـد العربـي الحـديث: فمـن الواضـح أن ناقـداً، يغلـب علـى تكوينـه الثقـافي عنصـر الثقافـة الخارجيـة، سـيكون اعتماده على المعطيات النقدية الأجنبية في مواجهتـه للـنص الأدبـي، أكـبر بكـثير مـن الناقـد الـذي يتسـاوى في تكوينـه الثقـافي عنصـر الثقافـة الأجنبية مع عنصر الثقافـة العربيـة، أو مـن الناقـد الـذي يغلـب علـى تكوينـه عنصـر الثقافـة العربيـة. ولـذلك فـإن دارس النقـد العربي الحديث سيلاحظ أن ثمـة فرقـاً معتـبراً بـين دور المـؤثرات الأجنبيـة في نقد ناقـد كلـويس عـوض وبـين دورهـا في ناقـد آخـر كحسـام

الخطيب، أو بين دورها في ناقد كعباس محمود العقاد ودورها في ناقد آخر كأمين الخولي.

متلقي النص النقدي: ذلك أنه غالباً ما يكون للمتلقي حيث أن للجمهور- آفاق توقعات يلاحظها كاتب النص النقدي، فناقد يخاطب قارئاً أجنبياً مثلاً سوف يحاول تحليل النص الأدبي وتفسيره وتقويمه ضمن إطار نظري يتصل بالخلفية المتوقعة للجمهور.

وثمة عوامل أخرى تُحدد، بشكل أو بآخر، الأهمية التي يمكن للمرء أن يعزوها للمؤثر الأجنبي في تحديد شبكة الافتراضات الضمنية التي تحكم الممارسة النقدية لهذا الناقد أو ذاك. وعلى أي حال فإن هذه الأهمية مقترنة أيضاً بوظيفية الإشارة إلى أية فكرة نقدية أجنبية. حيث نجد أن كثيراً من النقاد الناشئين (أو غيرهم من النقاد شديدي الحساسية تجاه التقليعات الفكرية) يلجؤون إلى توشية نصهم النقدي بأسماء ومصطلحات أجنبية ويثبتون أصولها الإنكليزية أو الفرنسية أو الألمانية أو غيرها رغبة في لفت نظر القارئ إلى الثقافة الواسعة التي يصدرون عنها، وإلى أنهم كغيرهم قادرون على التعامل مع هذه الأفكار النقدية واستخدامها بسهولة ويسر.

مهما كان الأمر فإن هذه الأهمية النسبية لدور المؤثر الأجنبي تعني أن هذا المؤثر يعمل بوصفه حافزاً أو عاملاً مساعداً في توجيه العملية النقدية في ممارسة الناقد العربي الحديث، مثلما يؤدي الدور نفسه في ممارسة الكاتب العربي شاعراً أو قاصاً أو كاتباً مسرحياً.

ولما كانت ظروف هذه الممارسة والمحددات المتنوعة لها، تختلف بين ناقد وآخر، وبين نص نقدي وآخر، فإن من الصعوبة بمكان إطلاق أحكام عامة فيما يتصل بأشكال المؤثرات الأجنبية ودرجات تمثلها وفاعلية توظيفها في النقد العربي الحديث، ما يتم دراسة حالات ممثلة تمتد زماناً ومكاناً على نحو يكفي لإقناع الدارس بأنه يستطيع أن يطمئن إلى عدالة حكمه وموضوعيته.

وبسبب ضيق المجال المتيسر، فإنه ربما كان من الحكمة اللجوء إلى تقديم نماذج من استخدام الأفكار النقدية الأجنبية في النقد العربي الحديث حتى يكون أي حكم يطلق

في هذا السياق مقصوراً على الأنموذج موضوع الدراسة.

وقد تم اختيار نماذج متنوعة تمتد عدة عقود (الثلاثينات والأربعينات والخمسينات والثمانينات) رغبة في إعطاء القارئ مؤشرات دالة يمكن أن تضيء جوانب مختلفة من القضية المعنية. وعلى أي حال فإن المرء يرجو أن تحفز هذه الدراسة الباحثين الآخرين على القيام بدراسات مماثلة في المستقبل القريب.

أما النماذج المختارة فتشمل عدداً من النقاد العرب المحدثين (عمر فاخوري وحسين مروة وغالب هلسا وبدر الدين عرودكي) الذين ينتمون إلى أجيال مختلفة، ويستقون أفكارهم النقدية من مصادر ثقافية متنوعة تنوع الثقافة العالمية في القرن العشرين.

هوامش:

1ـ انظر:

Muhammad Abdul-Hai,
Tradition and English and American Influence in Arabic Romantic Poetry: A Study in Comparative Literature (Ithaca Press, London, 1982),P.1.

2ـ انظر:

Helen Gardner, In Defence of Imagination,
(Oxford University Press, Oxford,1982), p. 175.

3ـ انظر:

بدر الديب وآخرون، **التثبت البيبلوجرافي الأعمال المترجمة: 1956- 1967**، إعداد لجنة من حسين بدران، وسليمان جرجس وفاطمة إبراهيم، وأشرف عليه بدر الديب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1972، ص (د).

4ـ انظر:

د. عبد النبي اصطيف، (المؤتمر السنوي السادس للجمعية البريطانية لدراسات الشرق الأوسط: وقائع وهوامش)، **مجلة مجمع اللغة العربية**، دمشق، المجلد 44، الجزء 4، .1980

5ـ من أجل دراسة مفصلة دقيقة لبعض المشكلات الأخرى المتعلقة بدراسة

الأدب العربي الحديث عامة، انظر:

"بعض المشكلات العملية للبحث في الأدب العربي الحديث"، **المعرفة**، دمشق، العدد211، أيلول 1979، ص ص (76-87).

*" المشكلات الخاصة بدراسة الأدب العربي الحديث"، **المعرفة**، دمشق، العدد 212، تشرين الأول 1979، ص ص(38-52).

6ـ يحسن بالمرء أن يشير هنا إلى دراسات د. محمد مصطفى بدوي، و د. حسام الخطيب، ود. محمد عبد الحي، وغيرهم كمثال على الجدية والمنهجية التي يمكن أن تحتذى وتطور فيما بعد.

7ـ من الرسائل التي يمكن أن يشير إليها المرء هنا:

- Zubaidi (Abd al-Munim Khidr Az-),

"Al-Akkads Critical Theories With Special Refrence to his Relationship with the Diwan School and to the Influence of European Writers Upon him", Ph. D., 1966, Edinburough University;

- Subhi (Hassn Abbas),

"The Influence of Modern English Writers on Arab Poets from 1939-1960",
Ph. D., 1960. Edinburough University.

- Azzabi (Khalifa Isa),

"The Influence lf English Writers on the Peotical Thought of A. Z. Abushadi",
M. Litt., 1970. Edinburough University.

وجميعها في مكتبة جامعة إدنبرة قسم الرسائل Theses تحت Other Languages.

وقد أثبتت هذه التفاصيل لتعميم الفائدة. وبالطبع ثمة الكثير من هذه الرسائل في مكتبات الجامعات الأخرى في أوربا وأمريكا.

8ـ انظر:

عبد النبي اصطيف، "دعوة إلى المنهج المقارن"، **الأقلام**، السنة 16 العدد 12/كانون الأول، 1981، ص ص (126-127).

9ـ انظر:

V. Cantarino, **Arabic Poetics in the Golden Age**,
(Brill, Leiden, 1975), p. 4.

10 انظر:

V. Cantarino, **Arabic Poetics in the Golden Age**, (Brill, Leiden, 1975), p. 4.

11ـ انظر:

M. M. Badawim **A Critical Introduction to Modern Arabic Poetry**, Cambridge University Press, 1975, p. 5.

12ـ انظر بشكل خاص:

د. كمال أبو ديب،

"في الصورة الشعرية: الفاعلية المعنوية والفاعلية النفسية للصورة: دراسة في البنية " من كتابه:

جدلية الخفاء والتجلي: دراسات بنيوية في الشعر، (دار العلم للملايين، بيروت 1979)، ص ص 19-63 ، والذي يفيد فيه أساساً من تصور عبد القاهر الجرجاني للصورة الشعرية في تأسيس منهج نظري في تناولها.